البحوث والدراسات

تأويل ثلاث آيات متشابهات

د. أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الكويت

- بين يدي البحث -

هذا البحث يدور حول ثلاث آيات متشابهات، هن الآيات التي ورد فيهن ذكر «الصابئين» وقد وردن في ثلاث سور من القرآن الكريم:

الآية الأولى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

والآية الثانية في سورة المائدة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

والآية الثالثة في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

وقد وقف المفسرون ـ قديما وحديثاً ـ طويلاً أمام آيتي البقرة والمائدة، واختلفوا في المراد بالطوائف الأربع «الذين آمنوا» و«الذين هادوا» و«الصابئين» و«النصارى» وذلك لأنه أتبع ذكر الطوائف بقوله: «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً»

---

(١) البقرة: ٦٢
(٢) المائدة: ٦٩
(٣) الحج: ١٧

فكيف يصح هذا البدل مما سبقه من «الذين آمنوا» ومن بقية الطوائف؟ وليصح ذلك لابد من الاجتهاد والتأويل في معاني هذه الطوائف، وقد كثرت الأقوال في ذلك، وتعددت وجهات النظر، وفي أكثرها تكلف واضح.

كذلك وقف المفسرون طويلاً أمام آية المائدة، لأن «الصابئين» فيها جاءت بالرفع «الصابئون»، في حين جاء ما نُسقت عليه منصوباً. وقد أكثر المفسرون وأهل الإعراب من الوجوه في سبب رفع «الصابئون» وجاءوا بأقوال متكلفة، وأبعدوا بها كثيراً عن المراد.

أما الكتب التي تعنى بالمتشابه اللفظي ككتاب «البرهان» للكرماني، وكتاب «درة التنزيل» للخطيب الإسكافي، وكتاب «ملاك التأويل» لابن الزبير الغرناطي، فقد تكلمت عن الآيات الثلاث مجتمعة باعتبارها متشابهاً لفظياً، والتفت مؤلفو هذه الكتب إلى الحكمة في اختلاف هذه الآيات بتقديم بعض الطوائف وتأخيرها «تقديم النصارى في البقرة وتأخيرهم في المائدة» كما التفتوا إلى تخصيص آية البقرة بقوله تعالى: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ وتخصيص آية الحج بزيادة ذكر «المجوس والذين أشركوا» وذلك بالإضافة إلى تلك القضايا التي عني بها المفسرون، والتي أشرنا إليها في الفقرة السابقة.

وبالرغم من كل تلك العناية وذلك الاهتمام الذي حظيت به الآيات الثلاث من قبل كبار المفسرين والنحويين، إلا أنهم لم يقولوا في كل ما عرضوا له الكلمة الأخيرة، ولم يصلوا في شأنها إلى برد اليقين، وما تزال الآيات الثلاث بحاجة إلى البحث والدرس، وذلك نظراً لما في هذه الآيات من مشكلات يصعب حلها، وقد أشار ابن تيمية في فتاواه إلى شيء من ذلك حينما عرض إلى أسباب نزول آية البقرة وتفسيرها، وردَّ ما قيل فيها من روايات ضعيفة ذكرتها معظم كتب التفسير، وبيّن تناقضها مع ما ورد في روايات صحيحة، وقد جعل ابن تيمية كلامه عن الآية تحت عنوان:

«هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها» ثم يقول: منها قوله: «إن الذين آمنوا والذين هادوا»[1]

---

(١) الفتاوي: ١٤/٦٨

وسنحاول في هذا البحث دراسة تلك القضايا التي أشرنا إليها، سائلين الله تعالى أن يلهمنا السداد والرشاد، وأن يأخذ بناصيتنا إلى الحق والصواب، وأن يجنبنا المزالق والعثرات، وأن يجعلنا على الجادة في كل ما نأخذ ونذر، إنه خير مسؤول وأكرم مأمول؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراد بالطوائف المذكورة في الآيات الثلاث:

سبق أن ذكرنا أن آيتي البقرة والمائدة، نُصَّ فيهما على أربع طوائف: «الذين آمنوا» «والذين هادوا» «والنصارى» «والصابئين»، وأن آية الحج زادت عليهما «المجوس» «والذين أشركوا». وسنبين فيما يلي المراد بهذه الطوائف بعد أن نعرض لأقوال العلماء ونتبين ما فيها من قوة أوضعف بناءً على دراسة الأدلة التي اعتمدوا عليها، والمرجحات التي ارتكنوا إليها.

«الذين آمنوا»:

قال ابن الجوزي في تفسيره[1]: «إن الذين آمنوا»: فيهم خمسة أقوال:

أحدهـــا: أنهم قوم كانوا مؤمنين بعيسى قبل أن يبعث محمد ـ ﷺ ـ قاله ابن عباس.

والثانـــي: أنهم الذين آمنوا بموسى، وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى، فآمنوا به وعملوا بشريعته إلى أن جاء محمد ﷺ ـ. وهذا قول السُّدِّي عن أشياخه.

والثالـث: أنهم المنافقون ـ قاله سفيان الثوري ـ.

والرابـع: أنهم الذين كانوا يطلبون الإسلام، كقُس بن ساعدة، وبحيرا، وورقة ابن نوفل، وسلمان.

والخامس: أنهم المؤمنون من هذه الأمة.

وزاد أبو حيان في البحر المحيط[2] ثلاثة أقوال أخرى، وهي:

السادس: أنهم أصحاب سلمان الفارسي.

السابـع: أنهم مؤمنو الأمم الخالية.

الثامـن: أنهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله من سائر الأمم.

ولا شك في أن مبعث هذا الاختلاف في معنى «الذين آمنوا» هو ماورد بعد ذلك في الآية من قوله: «من آمن بالله واليوم الآخر» لأنه يصير المعنى: إن الذين

---

(١) زاد المسير: ١/٩١

(٢) البحر المحيط: ١/٢٤١

آمنوا من آمن بالله واليوم الآخر؛ وَمَنْ كانوا مؤمنين؛ لا يقال من آمن منهم إلا على التغاير بين الإيمانين[1].

غير أن مما يبعد معظم تلك الأقوال عن الصواب أن صيغة «الذين آمنوا» أصبحت في أسلوب القرآن عَلَماً على المؤمنين من أمة محمد ـ ﷺ ـ وهذا مطرد في القرآن كله، ولم تأت هذه الصيغة ولو مرة واحدة على غير هذا المعنى. وإنما لجأ أصحاب الأقوال السابقة إلى تلك الأقوال هروباً من الإشكال، كما يبدو، وليس عندهم أدلة قوية تقف إلى جانبهم فيما ذهبوا إليه. ومن ثمّ فقد سهل على ابن تيمية أن يردَّ تلك الأقوال ويبين ما فيها من ضعف، بعد أن بيّن أن القول الصحيح، لا يمكن أن يكون إلا أمة محمد ـ ﷺ ـ وفي ذلك يقول:

و «الذين آمنوا» أولاً، المراد بهم أمة محمد.

وأما ما يذكره طائفة من المفسرين في قوله: «إن الذين آمنوا» أن فيهم أقوالا: أحدها: إنهم هم الذين آمنوا بعيسى قبل أن يبعث محمد، قاله ابن عباس، والثاني: إنهم الذي آمنوا بموسى وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى، فآمنوا به وعملوا بشريعته لما أن جاء محمد. وقالوا: هذا قول السدّى عن أشياخه. والثالث: إنهم طلاب الدين، كحبيب النجّار، وقُس بن ساعدة، وسلمان الفارسي، وأبي ذرّ، وبحيرا الراهب، آمنوا بالنبي قبل مبعثه. فمنهم من أدركه وتابعه، ومنهم من لم يدركه. والخامس: إنهم المنافقون. والسادس: إنهم الذي آمنوا بالأنبياء الماضين والكتب المتقدمة فلا يؤمنون بك ولا بكتابك.

فهذه الأقوال ذكرها الثَّعْلَبي وأمثاله ولم يسموا قائلها. وذكرها أبو الفَرَج ابن الجَوْزي إلا السادس، وسمى قائل الأولين، وذكر أنهم المنافقون عن الثوري. وهذه الأقوال كلها مبتدعة لم يقل الصحابة والتابعون لهم بإحسان شيئاً منها. وما نقل عن السدى غلط عليه، وقد ذكرنا لفظه الموجود في تفسيره المنقول بالإسناد الثابت في تفاسير الذين يذكرون الأسانيد، كتفسير عبدالرحمن بن أبي حاتم، وتفسير أبي بكر ابن المنذر، وتفسير محمد بن جَرِير الطبري، وأمثال هذه التفاسير. وما نقل عن ابن عباس لا يثبت[2].

---

(١) البحر المحيط: ٢٤٢/١

(٢) الرد على المنطقيين: ٤٤٩ ـ ٤٥١

وهكذا نرى أن معظم هذه الأقوال إنما هي اجتهادات خاصة لا يقوم دليل على صحتها، مما جعل ابن تيمية يقول فيها «وهذه الأقوال كلها مبتدعة لم يقل الصحابة والتابعون لهم بإحسان شيئاً منها». وبناءً على ذلك فلا يصح ما نسب إلى سفيان الثوري رحمه الله من أن المراد بـ«الذين آمنوا»: المنافقون الذين آمنوا ظاهراً، ومما يؤكد ذلك أن تفسير سفيان الثوري ـ المطبوع ـ لم يعرض لتفسير هذه الكلمة أصلاً، وسفيان أكبر من أن يقول مثل هذا القول، الذي ليس له شاهد واحد من كتاب الله.

ويرى ابن تيمية أن سبب خطأ المفسرين في هذه الآية يرجع إلى ظنهم أن الآية فيمن بعث إليهم محمد ـ ﷺ ـ خاصة، فغلطوا، ثم افترقوا على تلك الأقوال المتناقضة»[1] في حين أن الآية عامة في الأولين والآخرين ممن آمن وعمل صالحاً من الملل المذكورة، ولا يعارَض ذلك بأسباب النزول، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. علماً بأن الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، كما روي ذلك بالأسانيد الثابتة عن ابن أبي حاتم، وعن السُّدِّي عن أشياخه في تفسيره المعروف، قال: «نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي. بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم فقال: كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً» فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾. فقال: كان إيمان اليهود أن من تمسك بالتوراة وسنة موسى حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدَعْها ولم يتبع عيسى كان هالكاً. وإيمان النصارى: أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ. فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدَع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكاً. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا».

وهكذا نرى أن هذا النص المنقول عن ابن أبي حاتم في تفسيره وعن السُّدِّي عن أشياخه في تفسيره يفيد أن ما ذكر في الأقوال الأول والثاني ليس تفسيراً لصيغة «الذين آمنوا» ـ كما جاء في تلك الروايات الضعيفة التي أشار إليها ابن تيمية بقوله

---

(١) الفتاوي: ١٤/٦٩

عن الرواية الأولى المنسوبة إلى ابن عباس: «ومانقل عن ابن عباس لايثبت». وبقوله عن الرواية الثانية: «ومانقل عن السُّدِّي غلط عليه» ـ وإنما هو تفسير لما تبع تلك الصيغة من قوله: «الذين هادوا والنصارى . . . .» وهو ما صرح به ابن تيمية بقوله:

«وهي أقوال باطلة، فإن من كان متمسكا بشريعة عيسى قبل أن يبعث محمد ﷺ من غير تبديل فهم النصارى الذين أثنى الله عليهم؛ وكذلك من تمسك بشريعة موسى قبل النسخ والتبديل فهم اليهود الذين أثنى الله عليهم»[1].

أما القول الرابع بأنهم الذين كانوا يطلبون الإسلام كقس بن ساعدة، وبحيرا، وورقة بن نوفل، وسلمان، ومن كان على شاكلتهم، فيقول فيهم ابن تيمية: «وطلاب الدين: كحبيب النجار كان على دين المسيح، وكذلك بحيرا الراهب وغيره. ثم يقول: وكل من تقدم من الأنبياء وأمتهم يؤمنون بمحمد، فليس هذا من خصائص هذا النفر القليل»[2].

أما بقية الأقوال: من أنهم مؤمنو الأمم الخالية، أو أنهم المؤمنون بالله وكتبه ورسله من سائر الأمم، أو المؤمنون بالكتب السابقة قبل التوراة والإنجيل، كزبور داود وصحف إبراهيم، فكلها أقوال غير منسوبة لأحد من العلماء، وهي تخصيص بلا مخصص، ولا يشهد لها أثارة من نقل أو دليل من عقل.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن القول الراجح في معنى «الذين آمنوا»: إنما هم أمة محمد ـ ﷺ ـ لاغير.

«الذين هادوا»:

يرى الراغب الأصفهاني في تفسيره المخطوط[3]: أن «الذين هادوا» من «الْهَوْد» و «الهَوْد» من التوبة لقوله تعالى: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ أي تبنا. ومنه أخذ «اليهود». وقيل: أصل «اليهود: «يهوذا»[4] ـ منقول عن السريانية ـ وهو أقرب ـ وهاد فلان: إذا تحرى طريقهم في الدِّين.

---

(١) الفتاوي: ١٤/٦٨

(٢) الرد على المنطقيين: ٤٥١

(٣) تفسير الراغب ـ مخطوطة استامبول ـ ورقة: ١٠ وقارن بما جاء في كتابه «المفردات في غريب القرآن».

(٤) في الأصل: هوداً. وهو تصحيف.

والاسم العلم قد يُتَصَوَّر منه ما يتعاطاه المسمى به والمنسوب إليه، ثم يُشْتَقُّ منه، نحو قولهم: «تَفَرْعَنَ فلان»: إذا تحرَّى في فِعْلِه الجورَ الذي كان يتعاطاه فرعون. و «تَطَفلَ»: إذا فعل فِعْلَ طُفَيْلٍ في كونه وارثاً أو فاعلاً في الدعوات. وقالوا: «لاط فلان» و «تلَوّط»: إذا فعل فِعْل آل لوط ـ وهذا أبعد من الأول ـ.

ولما كان دين اليهود قبل أن ينسخ دين حق، قيل لمن تاب: «هاد» حتى كثر ذلك، ولما تُصُوِّر منه الحركة عند القراءة، شبه بهم المتحرك طوراً، والماشي مشياً مخصوصاً طوراً، فقيل: تهوّد في مشيه. وهوَّدَ الرَّائضُ الدابةَ: إذا سيَّرها برفق».

وكذلك يقول المعلم عبدالحميد الفراهي الهندي: «إن «هادوا» من: «هاد، يهودُ، هَوْداً» بمعنى: تاب ورجع، قال الله تعالى حكاية عن دعاء موسى عليه السلام: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾. وأيضاً: «هاد»: صار يهودياً، قال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾، وهكذا: «تهوَّد». وذلك على طريق العربية، كما يقال: «تنصَّر» من «النصرانية». ثم يقول الفراهي: وزعم الطاعنون في القرآن أن هذه الكلمة خطأ، فإن اسم «اليهود» ليس مأخوذاً من مادة «هود» بل هو للنسبة إلى «يهوذا» فنبين اشتقاق هذا الاسم لتعلم أن طعنهم من سوء فهمهم للقرآن ولصحفهم:

ـ أما القرآن فاستعماله هذه الكلمة ليس إيجاد لفظ من قبله، بل هو حسب لسان العرب، فإنهم جعلوا فِعْلَ «هادَ يَهُودُ»: لمن كان يهودياً، وقوله «هُدنا» ليس لبيان اشتقاق اسم اليهود، بل جاء في معناه الأصلي، ومع ذلك أشار إلى أصل ذهلت اليهود عنه كما سيأتيك ذكره.

ـ وأما سوء فهمهم لصحفهم فستطلع عليه مما نذكره»[1].

---

(١) مفردات القرآن للفراهي: ٧٠ ـ وأما ماذكره الفراهي من أخطاء اليهود في صحفهم، وما أشار إليه القرآن مما غاب عن اليهود، فقد آثرنا أن نجعله في الحاشية تتميماً للفائدة، ولأنه تحقيق هام يحسن الاطلاع عليه، ولم يسبق الفراهي أحد إلى مثله.

يقول الفراهي:

أعلم أن يهوذا كان ابناً رابعا ليعقوب عليه السلام من اثنى عشر ابنا الذين خرج منهم الأسباط الاثنا عشر وأعطى كلهم نصيبا من الأرض في عهد يشوع فوقع في نصيب بني يهوذا من أرشليم إلى أقصى الجنوب وكان داود عليه السلام من هذا السبط وانحازت مملكة بني إسرائيل كلها إليه فعظم أمر سبط يهوذا ثم ورث الملك بعده ابنه سليمان عليه السلام وبنى الهيكل في دار ملكه فزاد ذلك عظمة أخرى لسبط يهوذا وملكهم، ثم بعد ذلك وقع بينهم اختلاف فصارت هذه الأمة فرقتين: يهوذا على جانب، وبقية بني إسرائيل على آخر،

الفرق بين الصيغ الثلاث في استعمال القرآن:

حينما تكلم الراغب الأصفهاني عن مادة «هود» في كتابه «المفردات» ورجعها إلى معنى «التوبة» من قوله: «إنا هدنا إليك» أعقب ذلك بقوله: «وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح..»

ونلاحظ هنا أن كلام الراغب عام يشمل الصيغ الثلاث «الذين هادوا» و «هوداً» و «اليهود» ولم يذكر الراغب فرقاً بين معاني هذه الكلمات، بل يفهم من كلامه أن اسم المدح شامل للصيغ الثلاث. غير أننا لو تأملنا في استعمال القرآن الكريم لهذه الصيغ الثلاث لوجدناه:

- يعبر بـ «الذين هادوا» في موضع المدح عموماً، وحينما يكون الكلام عنهم من قبل

= وخلف ذكر باقي الأسباط فكثر في صحف اليهود ذكر يهوذا وإسرائيل. ثم بعدما سباهم الكلدانيون صار اليهود اسما عاما لبني إسرائيل. وذلك يدل على عدم فرقهم بين يهوذا بالذال المعجمة، ويهود بالدال المهملة. وقد التبس اشتقاق هذا الاسم على اليهود فإنهم ظنوا أنه من يهو أي الرب تعالى وذا أي هذا، وسبب هذا الظن أنهم وجدوا أسماء مركبة من يهو وكلمة أخرى موصولة به مثل يهوياقيم - ولم يفهموا العبارة التي وجدوها، في سفر التكوين في سبب التسمية وهي (٢٩ : ٣٥) «وحبلت أيضا (أي لئية زوجة يعقوب عليه السلام) وولدت ابنا وقالت هذه المرة أحمد الرب. لذلك دعت اسمه يهوذا» فظنوا أن يهوذا يشير إلى هذه المرة ويهو وهذا خطأ فإن الاسم يشير إلى أحمد الرب والعبارة محتملة لهذا التأويل أيضاً والدليل على صحته أمور: الأول إن الإشارة إلى معاني أسماء أبناء يعقوب كما جاءت في ذكر ولادتهم فهكذا جاءت في دعاء يعقوب حين باركهم، مثلا جاء عند ذكر الولادة في سفر التكوين (٣٠ : ١٩) «وحبلت أيضا لئية وولدت ابنا سادسا ليعقوب - فقالت لئية قد وهبني الله هبة حسنة الآن يساكنني رجلي لأني ولدت له ستة بنين فدعت اسمه زبولون» وجاء في هذا السفر عند ذكر البركة (٣٩ : ١٣) «زبولون عند ساحل البحر يسكن» فأشار في كلا الموضعين إلى معنى السكونة - فهكذا جاء في دعائه يهوذا في هذا السفر (٧٩ : ٨٠) «يهوذا إياك يحمد اخوتك - يدك على قفا أعدائك يسجد لك بنو أبيك» فتبين أن وجه التسمية، هو الحمد والطاعة وأن اسم يهوذا ليس مركبا من يهووذا، بل هو كلمة واحدة من مادة هود.

والثاني: أن بعد النبي نجد اسم اليهود يطلق عليهم واسم اليهودي على لسانهم كما جاء في سفر عزرا ونحميا واستير واشعيا وأرميا ودانيال وإنجيل حتى اشتهر هذا الاسم فلو كان الأصل يهوذا لسموا باليهوذي بالذال المعجمة.

والثالث: أن الأسماء المركبة من يهو لابد أن تتضمن كلمة أخرى تدل على وصف يليق وصله بيهو وكلمة ذا ليست مما يليق بأن يضم بيهو في تسمية مخلوق فإن المعنى يكون هذا الله وشناعة هذه التسمية ظاهرة. والقرآن ربما ينبه على خطئهم كما هو مبسوط في موضعه فنبه على أن اسم يهوذا الذي انتسبوا إليه أصله من مادة هود - ومن حسن إشارة القرآن أنه نبه اليهود على معنى اسمهم ليعلموا أنهم يلزمهم أن يتوبوا إلى ربهم.»

- عن مفردات القرآن: ٧٠ - ٧٢ -

الله مباشرة دون حكاية لأقوال بعضهم في بعض، أو أقوال غيرهم فيهم، أو في موضع التشريع.

فمن باب المدح عموماً ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ . . . ﴾ [البقرة: ٦٢] [والمائدة: ٦٩].
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ [الحج: ٢٢]

ومن باب المدح للبعض وذم البعض قوله تعالى:

- ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]
- ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة: ٤١]

حيث تشير الآيتان إلى أن من الذين هادوا من يحرّف الكلم، ومنهم سمّاع للكذب، وهذا وإن كان ذمّاً لمن يفعل ذلك، فإنه يفيد أيضاً المدح لمن لا يفعل ذلك منهم.

- وأما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦]

فإن التعبير بـ «قل يأيها الذين هادوا» فيه من التكريم والمدح ما يتعارض مع ذلك الزعم الذي يزعمون من أنهم أولياء لله من دون الناس، وذلك تذكير لهم بواجب التوبة إلى الله، والرجوع إليه بالإقلاع عمّا هم فيه من ادعاء الولاية لله من دون الناس.

وفي موضع التشريع نجد الآيات التالية:

- ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠]
- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ . . . ﴾ [المائدة: ٤٤]
- ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ . . . ﴾ [الأنعام: ١٤٦]
- ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ [النحل: ١١٨]

وهكذا نرى أن صيغة «الذين هادوا» في استعمال القرآن الكريم قريبة في دلالتها وإيحاءاتها من صيغة «الذين آمنوا» حيث تُذكِّر صيغة «الذين هادوا» اليهودَ بتوبتهم من عبادة العجل ليكون ذلك حافزاً لهم لفعل الخير واجتناب الشر، كما تذكر صيغة «الذين آمنوا» المسلمين بإيمانهم الذي هو أصل كل عمل وأساس كل تشريع.

أما كلمة «هوداً» فقد جاءت في استعمال القرآن الكريم حكاية عما يقوله بعضهم لبعض:

- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]
- ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: ١٣٥]
- ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠]

ويلاحظ من خلال الآيات الثلاث أن اليهود والنصارى يمتدحون أنفسهم وما هم عليه من الهداية بهذه الصيغة «هوداً» أو «نصارى»، كما يزعمون أن دخول الجنة موقوف على من كان «هوداً أو نصارى».

أما كلمة «اليهود» فقد جاءت في استعمال القرآن في معرض الذم، سواء أكان ذلك الذم من قول بعضهم لبعض، أم من ذمِّ الله لهم ولمواقفهم، كما يلاحظ ذلك في الآيات التالية:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣]
- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ . . .﴾ [المائدة: ٦٤]
- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

ويلاحظ اقتران اليهود بالنصارى في معظم الآيات السابقة مما يدل على اشتراك في المواقف المذمومة، كما يلاحظ اشتراك اليهود والمشركين في العداء الشديد للمؤمنين.

أما كلمة «اليهودي» ـ بالإفراد ـ فلم ترد إلا في آية واحدة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]. وفي الآية ذم لليهودي والنصراني، ومدح للحنيف المسلم.

النصارى:

يذكر الراغب الأصفهاني أقوالاً في سبب هذه التسمية:

ـ قيل سُمُّوا بذلك لقوله: ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[1].

ـ وقيل: سُمُّوا بذلك انتساباً إلى قرية يقال لها «نَصران» فيقال نصراني. وجمعه: نصارى، قال: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى**﴾[2].

هذا ما ذكره الراغب في كتابه «المفردات» حيث لم يرجح واحداً من القولين السابقين، إلاّ أنه في تفسيره المخطوط قد رجح القول الثاني حيث قال: «والأقرب: ما قال بعضهم: إن المسيح كان من قرية يقال لها «نصران» فإمّا أن سُمُّوا بها، ثم جمعته العرب على «نصارى» نحو «سكران» و «سكارى» أو جعلوا منسوبين إليها نحو «قهري» و «قهاري»»[3].

وهذا القول الذي رجحه الراغب قد رجحه أيضا المعلم عبدالحميد الفراهي الهندي في كتابه «مفردات القرآن» حيث قال: «النصارى: جمع «نصران» مثل «ندامى» و «ندمان»...

ويذكر الفراهي أن هذا الاسم النصارى ـ كان لهم في الأول، وأن قدماء هم لم

---

(١) سورة الصف: ١٤

(٢) المفردات: ٤٩٥

(٣) تفسير الراغب ـ مخطوطة تركية ـ ورقة/ ١٠

ينكروه، ولكن المتأخرين منهم ظنوه شتماً، وأنكروا هذا الاسم عناداً لأوائلهم، وبيان ذلك:

أن أتباع المسيح صاروا فرقتين:

- فرقة اتبعواالخليفة بالحق «شمعون» وتسمَّوا باسم «النصارى» وكلهم[1] آمنوا بمحمد - ﷺ - وهم الذين مدحهم القرآن حيث قال تعالى: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى» فصرح بأن المراد هم الذين تسموا بهذا الاسم.

- وفرقة اتبعوا «بولس» - المبتدع - وهم الباقون الآن، وهؤلاء قد زعموا أن النصارى كلمة التحقير لأنها نسبة إلى «ناصرة» - وهي قرية حقيرة عندهم كما جاء في يوحنا:

«ولقي فيلبُّسُ نَتَنائيل فقال له: وجدنا الذي ذكره موسى في الشريعة وذكره الأنبياء، وهو يسوع بن يوسف من الناصرة. فقال له نَتَنائيل: أمن الناصرة يخرج شيء صالح؟...»[2]

ويعلق الفراهي على هذا بقوله:

وهذا من تكبر هذه الفرقة، فإن «الناصرة» إن كانت مولد عيسى عليه السلام، فأي حقارة في النسبة إليها، وقد زعموا أن «الناصرة» كانت مولده، كما جاء في أناجيلهم، بل إنه يدعى «ناصرياً» كما جاء في «متى»: «وجاء مدينة يقال لها «الناصرة» فسكن فيها ليتمّ ما قيل على لسان الأنبياء: إنه يدعى ناصرياً»[3].

ثم يقول الفراهي: وزعم الطاعنون أن القرآن لم يعرف هذه التسمية - أي: النسبة إلى ناصرة - وجعلها من «النصرة» لما جاء فيه: ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾. وهذا الطعن منشؤه الجهل بمعنى الآية، فإنها إنما ذكرت أمراً حقاً، ولم تذكر وجه التسمية. نعم إن فيها إشارة إلى أن المسمين بـ «النصارى» يجب عليهم نصر الحق، لما في اسمهم من تذكير بذلك. وأمثال هذه الإشارات توجد في كلام الأنبياء، قال عيسى - عليه

---

(١) وفي مذكرات الفراهي: وهكذا وقع فإن النصارى - أي: أتباع الصفا - آمن أكثرهم. - وقد أورد الفراهي ذلك في تعليقه على الآية /٨٢ من سورة المائدة.

(٢) يوحنا: ١/٤٥ - ٤٦ - وقد نقلناه مباشرة من العهد الجديد. وقد أورده الفراهي مع الاختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) متى: ١/٢٣ وقد نقلناه مباشرة من العهد الجديد وقد أورده الفراهي مع الاختلاف في بعض الألفاظ

السلام لشمعون ـ وكان يدعى «صفا» : وأنا أقول لك أيضاً : أنت «صفا» وعلى هذا الصفا أبني كنيستي»[1].

ومن خلال النظر في الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة «النصارى» نرى أنها وردت في معرض الذم مقرونة في معظمها مع اليهود، كما بينا ذلك فيما سبق من الآيات التي استشهدنا بها عند كلامنا عن «الذين هادوا» ولم ترِدْ في معرض المدح إلا بصيغة «الذين قالوا إنا نصارى» كما في قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهذا النص يشير إلى أن هؤلاء «الذين قالوا إنا نصارى» لم يلبثوا أن آمنوا ودخلوا في دين الله، وكانوا بذلك شهداء بما نزل عليهم في كتابهم من البشارة بهذا النبي وبالتوحيد. وعلى هذا فمن جعل المسيح إلهاً أو لم يؤمن بمحمد ﷺ فقد كذب بالشهادة.

ولا شك في أن هؤلاء الذين كانوا يقولون «إنا نصارى» لا نجد لهم أثراً واضحاً في زماننا، بل إننا لا نجد لهم ذكراً في أناجيل النصارى وكتابهم المقدس ـ الذي بين أيدينا ـ وهذا يؤكد ما سبق أن ذكره الفراهي من إنكارهم هذه التسمية وكراهيتهم لها، فهم يذكرون بدلاً منها كلمة «المسيحيين». وبالتالي فلا ينطبق على هؤلاء ما ورد في الآية السابقة من ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ . . .﴾.

الصابئون :

أكثر المفسرون من ذكر الأقوال في معنى «الصابئين» ولا بأس أن نذكر ما قيل فيهم بإيجار :

قال ابن كثير في تفسيره : «وأما «الصابئون» فقد اختلف فيهم :

ـ فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد، قال : الصابئون : قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه، وروي عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك.

---

(١) هكذا ورد في كلام الفراهي : وأما في العهد الجديد ـ متى ١٤/ ١٥ ـ ١٦ ـ : «وأنا أقول لك : أنت صخر وعلى الصخر هذا سأبني كنيستي». وانظر مفردات القرآن للفراهي : ٦٩ ـ ٧٠

- وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، والسُّدِّي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك: «الصابئون» فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور.
- وقال هشيم عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتيبة، فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس، فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك؟
- وقال عبدالرحمن بن مهدي، عن معاوية بن عبدالكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون الملائكة.
وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرءون الزبور، ويصلون إلى القبلة - وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
- وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: «الصابئون» قوم مما يلي العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلّون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات.
- وسئل وهب بن منبه عن الصابئين، فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً.
- وقال عبدالله بن وهب، قال عبدالرحمن بن زيد: الصابئون: أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي - ﷺ وأصحابه -: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله...

ثم يقول ابن كثير: وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم»[1].

هذا ما أورده ابن كثير من أقوال في معنى الصابئين، وقد رجح منها قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه، دون أن يذكر دليلاً لهذا الترجيح. وإن كان يبدو لنا أنه قد اعتمد في ذلك على رأي شيخه ابن تيمية، حيث عرض ابن تيمية لتحقيق معنى «الصابئين» في كتابه «الرد على المنطقيين» وقال كلاماً سديداً جمع فيه بين الأقوال، وبيّن أن المقصود بكل قول منها طائفة من الصابئين غير المقصودة بالقول الآخر، وأن

(١) تفسير ابن كثير: ١/١٤٨ - ١٤٩

من هذه الطوائف من هو من الحنفاء الموحدين، ومنها من هو غير ذلك، وفي هذا يقول ابن تيمية:

«وأما من قال من السلف: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور، كما نقل ذلك عن أبي العالية، والضحاك، والسُّدِّي، وجابر بن زيد، والربيع بن أنس، فهؤلاء أرادوا من دخل في دين أهل الكتاب منهم. وكذلك من قال: هم صنف من النصارى ـ وهم السائحون المحلقة أوساط رؤسهم ـ فهؤلاء عرفوا منهم من دخل في أهل الكتاب.

ومن قال: إنهم يعبدون الملائكة ـ كما يروى عن الحسن ـ قال: هم قوم يعبدون الملائكة، وعن أبي جعفر الرازي قال: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرءون الزبور ويُصَلُّون. فهذا أيضاً صحيح، وهم صنف منهم. وهؤلاء كثير من الصابئين يعبدون الروحانيات العلوية، لكن هؤلاء من المشركين منهم، ليسوا من الحنفاء، وكذلك اختلاف الفقهاء في الصابئين هل هم من أهل الكتاب أم لا؟

ـ ويُذكر فيه عن أحمد روايتان ـ وكذلك قولان للشافعي ـ والذي عليه محققو الفقهاء أنهم صنفان:

فمن دان بدين أهل الكتاب كان منهم، وإلا فلا.

وقال أبو الزناد: الصابئون قوم مما يلي العراق، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلّون إلى الشمس كل يوم خمس صلوات، فهؤلاء الصابئة الذين أدركهم الإسلام ـ وكانوا بأرض حران ـ والذين خبروهم عرفوا أنهم ليسوا من أهل الكتاب، بل مشركون يعبدون الكواكب، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم. وإن أظهروا الإيمان بالنبيين، فهو من جنس إيمان الفلاسفة بالنبيين. والفلاسفة الصابئون هم من هؤلاء.

وأما قبول الجزية منهم فهو على الخلاف المشهور، فمن قبلها من غير أهل الكتاب ـ كما يقبل من المجوس ـ قبلها من هؤلاء. ـ وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ـ ومن لم يقبلها إلا من أهل الكتاب لم يقبلها من هؤلاء، كما إذا لم يدخلوا في دين أهل الكتاب ـ كما هو قول الشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى عنه ـ وكان أبو سعيد الاصطخري أفتى بأن لا تقبل منهم الجزية. ونازعه في ذلك جماعة من الفقهاء»[1].

(١) الرد على المنطقيين: ٤٥٦ ـ ٤٥٧

هذا ما ذكره ابن تيمية في طوائف الصابئين غير الحنفاء، وكان قبل ذلك قد عرض لطائفة الصابئين الحنفاء بقوله:

«وأما الصابئون الحنفاء فهم ـ في الصابئين ـ بمنزلة من كان مُتبعاً لشريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى ـ وهؤلاء ممن حمدهم الله وأثنى عليهم ـ وبعض الناس يقول: إن بقراط كان من هؤلاء.

ووهب بن منبه من أعلم الناس بأخبار الأمم المتقدمة، وقد روى ابن أبي حاتم بالإسناد الثابت أنه قيل لوهب بن منبه: ما الصابئون؟ قال: «الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً، وكذلك روي عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال: هم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين ـ قال وروي عن عطاء نحو ذلك: أي ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي، ولم يرد بذلك أنهم كفار، فإن الله قد أثنى على بعضهم، فهم متمسكون بالإسلام المشترك، وهو عبادة الله وحده، وإيجاب الصدق والعدل، وتحريم الفواحش والظلم، ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على إيجابه وتحريمه، فإن هذا دخل في الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره. وكذلك قال عبدالرحمن بن زيد: هم قد يقولون: لا إله إلا الله فقط، وليس لهم كتاب ولا نبي» ثم يقول ابن تيمية موضحاً ما كان عليه العرب قبل عبادة الأوثان:

«وهذا كما كانت العرب عليه قبل أن يبتدع عمرو بن لحي الشرك وعبادة الأوثان، فإنهم كانوا حنفاء يعبدون الله وحده ويعظمون إبراهيم وإسماعيل، ولم يكن لهم كتاب يقرؤونه ويتبعون شريعته. وكان موسى قد بعث إلى بني إسرائيل بشريعة التوراة وحج البيت العتيق، ولم يبعث إلى العرب ـ لا عدنان: ولد إسماعيل، ولا قحطان ـ . . . »[1] ولا شك في أن هذا القول هو الذي رجحه ابن كثير إذ يقول:

«وأظهر الأقوال ـ والله أعلم ـ قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه ـ: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى، ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابيء، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك»[2].

(١) الرد على المنطقيين: ٤٥٤ ـ ٤٥٥

(٢) تفسير ابن كثير: ١/١٤٩

ولابد من التنبيه إلى أن هذا الترجيح الذي ذهب إليه ابن كثير مؤيداً فيه لرأي شيخه ابن تيمية إنما يراد به الصابئون المعنيون بالآية، لأن الآية ذكرتهم في معرض المدح مع الذين آمنوا واليهود والنصارى، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية بأن الصابئة نوعان: حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ . . . ﴾ فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الأربع: المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين»[1].

المجوس:

وأما المجوس: فقد ذكر الألوسي في تفسيره أنهم ـ على ماروي عن قتادة ـ: قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران. وقيل: هم قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح. وقيل: قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً، ومن دين اليهود شيئاً. وهم قائلون بأن للعالم أصلين نوراً وظلمةً.
وفي كتاب «الملل والنحل» مايدل على أنهم طوائف، وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى، وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة، وأن لهم شبهة كتاب وأنهم يعظمون النار[2].

والذين أشركوا:

قال فيهم الألوسي: المشهور أنهم عَبَدَةُ الأوثان، وقيل: مايعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى إلهاً آخر من ملك وكوكب وغيرهما ممن لم يشتهر باسم خاص كـ «الصابئة والمجوس»[3].

ولا شك في أن آية الحج قد انفردت عن آيتي البقرة والمائدة بذكر «المجوس والذين أشركوا» كما أنها لم يذكر فيها ما ذكر في الآيتين من قوله: «من آمن بالله واليوم الآخر» مما جعل ابن تيمية يعلل ذلك بعدم وجود مؤمنين من «المجوس والذين أشركوا» وذلك بخلاف الملل الأربع الأولى، كما سبق أن بيناه وشرحناه.

---

(١) الرد على المنطقيين: ٢٨٨
(٢) تفسير روح المعاني: ١٧/ ١٢٩
(٣) تفسير روح المعاني: ١٧/ ١٢٩

وبعد أن انتهينا من التعريف بالطوائف الست التي اشتملت عليها الآيات الثلاث، سنستعرض كل آية من الآيات الثلاث على انفراد ذاكرين ما اختصت به كل واحدة منهن، مبينين الحكمة في نظمها وترتيب ذكر الفرق فيها، ثم نعقد بعد ذلك مقارنة بين الآيات الثلاث نبين فيها أوجه الاتفاق والاختلاف والحكمة وراء ذلك كله.

آية البقرة:

في أسباب نزول آية البقرة:

لعله من المستحسن في بداية حديثنا عن آية البقرة أن نستعرض ما جاء في أسباب نزولها:

لقد ذكرت كتب التفسير وكتب أسباب النزول عدة روايات في أسباب نزول هذه الآية، ومعظم هذه الروايات ضعيف سنداً ومتناً، والذي يصح منها قليل:

فمن الروايات الضعيفة:

ـ ما أخرجه الطبري عن موسى بن هارون، قال حدثنا عمرو، قال حدثنا أسباط بن نصر عن السُّدِّي:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ـ الآية ـ قال: نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي، وقد ذكر الطبري قصة خروج سلمان من جُند يسابور ومروره على كنائس النصارى ولقاءه برهبانهم، وما جرى له معهم حتى وصل إلى المدينة المنورة، وحدَّث النبي ﷺ بقصته، وذكر له أصحابه من الرهبان فأخبره خبرهم، فقال سلمان: «كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له نبي الله ﷺ: ياسلمان: هم من أهل النار. فاشتدّ ذلك على سلمان، وقد كان قال له سلمان: لو أدركوك صدقوك واتبعوك. فأنزل الله هذه الآية: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر﴾**[1].

وقد علّق الأستاذ الكبير محمود شاكر على هذه الرواية في تفسير الطبري بقوله: هذا حديث منقطع في شأن إسلام سلمان الفارسي.

(١) انظر القصة بطولها في الطبري: ٢/١٥٠ ـ ١٥٤. وانظرها في ابن كثير: ١/١٤٧، وأسباب النزول للواحدي: ٢٣ و «لباب النقول» للسيوطي المطبوع بهامش المصحف عند قوله «إن الذين آمنوا والذين هادوا..».

ـ أما الرواية الثانية التي أخرجها الطبري فهي عن القاسم، قال حدثنا الحسين، قال حدثني حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قوله: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا**﴾ ـ الآية ـ، قال: سأل سلمان الفارسي النبي ﷺ عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم، قال: **لم يموتوا على الإسلام، قال سلمان فأظلمت عليَّ** الأرض، وذكرت اجتهادهم فنزلت هذه الآية: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادو..**﴾ فدعا سلمان فقال: نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال النبي ﷺ: (**من مات على دين عيسى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي فهو على خير، ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك**).

وقد علّق أيضاً الأستاذ محمود شاكر على هذه الرواية بقوله: «وهذا منقطع أيضاً».

ويرى ابن تيمية أن هذه الروايات التي تذكر أصحاب سلمان كلها روايات ضعيفة وأن الروايات الصحيحة ليس فيها النص على أنهم من أهل النار، والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده، وأن ذلك معارض بما روي في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ ـ قال ذات يوم في خطبته: (... **وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب...**) والمراد بهم: الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل. وذلك قبل بعثة الرسول ـ ﷺ ـ كما أشار إلى ذلك النوري في شرحه للحديث[1].

أما الروايات الصحيحة في أسباب النزول فقد ذكرها ابن تيمية بقوله:

«وروى الناس كابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الثابتة عن سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مُجاهِد قال: قال سلمان: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكر من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصرى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً**﴾. وكذلك ذكر السُّدِّيُ عن أشياخه في تفسيره المعروف، قال: نزلت هذه الآية في أصحاب سَلْمان الفارسي. بينا هو يحدّث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم فقال: «كانوا يصومون ويصلون،

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي: ١٩٦/٢٠٠، وانظر قول ابن تيمية في الفتاوي: ٦٨/١٤.

ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستُبعث نبياً». فأنزل الله هذه الآية ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصرٰى والصٰبئين من آمن بالله واليوم الآخر﴾. فقال: كان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى حتى جاء عيسى؛ فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدَعْها ولم يتبع عيسى كان هالكا. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ؛ فمن لم يتبع محمداً ﷺ [منهم] ويدَع ماكان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا. قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جُبَير نحو هذا.»[1].

وبهذا يتبين أن الروايات الصحيحة تتفق مع ما أخرجه مسلم في صحيحه، في أن من كان من بقايا أهل الكتاب على دين أنبيائهم السابقين قبل التغيير والتبديل فهم على خير، وليسوا من أهل النار، وأن لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

حكمة ترتيب ذكر الفِرَق في آية البقرة: مايراه الخطيب الإسكافي:

يرى الخطيب الإسكافي في كتابه «درة التنزيل وغرَّة التأويل»[2] أن ترتيب ذكر الفِرَق في سورة البقرة جاء موافقاً لترتيب تنزيل الله لكتبه، لأن المعنى عنده: «إن الذين آمنوا بكتب الله المتقدمة، مثل صحف إبراهيم، والذين آمنوا بما نطقت به التوراة، وهم اليهود، والذين آمنوا بما أتى به الإنجيل، وهم النصارى، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب تنزيل الله كتبه، فصحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى ـ عليه السلام ـ فرتّبهم ـ عز وجل ـ في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة، ثم أتى بذكر «الصابئين» وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملّة إلى ملة، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا...﴾ فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب».

---

(١) ذكر ابن تيمية ذلك في كتابه «الرد على المنطقيين: ٤٤٨ ـ ٤٤٩. وانظر أيضاً في ذلك: ابن كثير: ١/١٤٧، ولباب النقول للسيوطي عند هذه الآية.

(٢) درة التنزيل: ٢١

هذا ما ذكره الخطيب في حكمة ترتيب الفرق في آية البقرة، ومما يضعف هذا القول أنه جعل «الذين آمنوا»: آمنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم، ثم عطف عليهم الإيمان بالكتب التالية لصحف إبراهيم وهي التوراة والإنجيل. فتخصيصه «الذين آمنوا» بأنهم الذين آمنوا بالكتب المتقدمة تخصيص بلا مخصص، ولا دليل عليه، بل هو خلاف الظاهر كما بينا ذلك فيما سبق عند كلامنا عن المراد بـ «الذين آمنوا» ولم يعرف هذا القول فيما نقل عن الصحابة والتابعين؛ ثم إن المعطوف على «الذين آمنوا» «الذين هادوا والنصارى» وليس «الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل»، فتخصيص «الذين هادوا والنصارى» بأنهم المؤمنون بالتوراة والإنجيل فيه تجوز واضح. وقد سبق أن بيّنا أن صيغة «الذين آمنوا» غدت في استعمال القرآن الكريم علماً على الطائفة المؤمنة برسالة محمد ﷺ، وأنها لم تأت في آية من آيات القرآن ـ على كثرة ورودها فيها ـ بغير هذا المعنى، ولعلّ الذي دفع الخطيب الإسكافي إلى القول بهذا القول هربه من مواجهة الإشكال الذي ينتظره في تتمة الآية: ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر**...﴾ فيما لو فسر «الذين آمنوا» بالمؤمنين من أمة محمد، إذ كيف يقال: «إن الذين آمنوا ... من آمن منهم» ولكن القول الذي ذهب إليه الخطيب يَحُلُّ هذا الإشكال، إذ يكون المعنى: إن الذين آمنوا بكتب الله... من آمن بالله واليوم الآخر؛ وهو حلٌ مقبول لو كان له دليل يستند إليه، إلّا أن ما أوردناه على هذا القول من إيرادات يجعله بعيداً غير مقبول.

ما يراه ابن الزبير الغرناطي:

لا يوافق ابنُ الزبير الغرناطي الخطيبَ الإسكافي في ما ذهب إليه من تفسير «الذين آمنوا» بأنهم المؤمنون بالكتب المتقدمة، ومن ثمَّ ينحو نحواً آخر في تعليل ترتيب ذكر الفِرَق فيقول: «إن المؤمنين أحق بالتقديم وهم أهل الخطاب والمتكلَّم معهم في الآي قبل، فهم من حيثُ أحوالهم معظَمُ من قُصِد بالخطاب والتأنيس. ثم إن أهل الكتابين يَلُون المؤمنين، فإنهم ليسوا كافرين بكل الرسل، ولا منكرين لكل ما أنزل من الكتب، فقد كانوا أقرب شيء لولا التبديل والتغيير والتحريف المقدر وقوعه عليهم، فإنهم قد قدم إليهم فنكثوا ونقضوا وكفروا بمن قدم إليهم من أمره، واليهود أقدم تعريفاً وأسبق زماناً، فلما اجتمع الأصناف الثلاثة في أنهم أهل الكتاب والمُقِرُّون بالبداءة والعودة وإرسال الرسل على اختلاف حالاتهم في ذلك وأزمانهم،

كان تقديمهم على غيرهم أوضح شيء على الوارد في سورة البقرة، إلا أن ذكرهم لم يقع بحرف مُرَتِّب، بل وقع الاكتفاء بترتيب الذكر، لاستوائهم في الغايات من استواء العواقب، وأن الفائز من الكُلِّ إنما هو مَن كانت خاتمته في دار التكليف الموافاة على الإيمان والإسلام، و«إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وإن الموافي في الكل على الكفر في النار، ثم عذابهم بحسب جرائمهم جزاء وفاقاً. فَرُتِّبوا ذِكْراً بحسب حالهم الدنياوي، ولم يتقعد الترتيب بالحرف المرتب لحظاً لحالهم الأخراوي، فجرى ذكرهم في سورة البقرة على هذا، وأخرَّ ذكر الصابئين لتأخرهم عن هؤلاء الأصناف في أنهم ليسوا أهل الكتاب، أو ليسوا مثلَهم فيما وراء ماذكر من أحوالهم، فإيراد ذكرهم على مافي سورة البقرة بَيِّن».

ويلاحظ على هذا القول أنه يُعَلِّل ذكر المؤمنين أولاً، وأحقيتهم بالتَّقديم بأنهم أهل الخطاب والمتكلَّم معهم في الآي قبل، ثم يذكر أن أهل الكتابين يَلُون المؤمنين لأنهم ليسوا كافرين بكل الرسل، ولا منكرين لكل ما أنزل من الكتب . . وبهذا تظهر حكمة تقديم الأصناف الثلاثة على الصابئين، لأنهم يجتمعون في أنهم أهل الكتاب والمقرون بالبداءة والعودة وإرسال الرسل . . . إلا أن ذكرهم لم يقع بحرف مرتب، بل وقع الاكتفاء بترتيب الذكر لاستوائهم في الغايات من استواء العواقب . . . فرتبوا ذكراً بحسب حالهم الدنياوي، ولم يتقعد الترتيب بالحرف المرتب لحظاً لحالهم الأخراوي . . .» وهو يريد بقوله «فرتبوا ذكراً بحسب حالهم الدنياوي» ماسبق أن أشار إليه بقوله: «واليهود أقدم تعريفاً وأسبق زماناً» وهو يعني الترتيب الزماني، حيث جاء ذكر «الذين هادوا» قبل «النصارى» في الآية. ولا شك في أن هذا التعليل فيه تكلُّف واضح، لأنه يجعل المؤمنين واليهود والنصارى مقرين بالبداءة والعودة وإرسال الرسل، وهذا أمر غير مُسَلَّم، لأن الكفر بواحد من رسل الله كفر بهم جميعاً، كما جاءت بذلك الآيات القرآنية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ - [النساء: ١٥٠ - ١٥٢]

مانراه من حكمة ترتيب ذكر الفِرَق في آية البقرة:

من المعلوم أن سورة البقرة هي أول سورة نزلت بعد الهجرة النبوية، وأنها في إثبات صحة نبوة محمد - ﷺ - والتي كان اليهود يبشرون بها لما يعلمون من صفات النبي في كتبهم، غير أن اليهود لم يلبثوا أن أنكروا هذه النبوّة حقداً وحسداً، لأن النبي - ﷺ - لم يكن من بني إسرائيل، ولأن هذه النبوّة تنقل الاستخلاف في الأرض من بني إسرائيل وتجعلهُ لبني إسماعيل، وذلك نتيجة لنكول بني إسرائيل عن قيامهم بواجب الاستخلافِ. ومن ثم تواجه السورة بني إسرائيل بتاريخهم السابق وما جرى فيه من الانحرافات والمخازي والحَيدة عن طريق الحق والهدى، وأنهم في موقفهم من نبوّة محمد - ﷺ - إنما يجرون وراء انحرافات أسلافهم. بل إنهم في ذلك أمة واحدة متضامنة، حتى إن النص القرآني يخاطب المعاصرين للرسول - ﷺ - على أنهم هم الذين فعلوا كل تلك الأفاعيل في تاريخهم.

ولما كان النص القرآني تارة يخاطب المؤمنين بتكاليف الدعوة الجديدة التي حَمَّلَتْهُم أمانة الخلافة في الأرض، وتارة يخاطب اليهود لموقفهم من هذه الدعوة ويستعرض تاريخهم، وكان ذلك معظم آيات سورة البقرة، فقد ناسب أن يذكر «الذين آمنوا» أولاً، لأنهم المخاطبون بالاستخلاف، ثم ناسب أن يذكر «الذين هادوا» مراعاة لسياق الكلام حيث جاء فيها قبل آية الصابئين: ﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وجاء فيها بعد آية الصابئين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقد علمنا من خلال ما جاء في أسباب النزول أن آية «الصابئين» في سورة البقرة إنما نزلت في شأن من سأل عنهم سلمان الفارسي من أصحابه من الرهبان قبل مجيء الإسلام، وبناءً على هذا يكون تقديم ذكر اليهود على النصارى مراعاةً لسياق الكلام، لأن الخطاب لهم قبل الآية وبعدها، وإغراءً لهم بالإيمان والنجاة، كما كان الشأن مع أسلافهم من المؤمنين بالله واليوم الآخر قبل التحريف والتبديل، ويكون ذكر «النصارى» إنما جاء بعد اليهود لأنهم هم الذين سأل عنهم سلمان الفارسي، ولم

يكن للنصارى في المدينة وجود كوجود اليهود، كما أن الخطاب في الآية ليس معهم، ومن ثم حُسن تأخيرهم في الذكر عن اليهود. ولما كان «الصابئون» لم يسبق لهم ذكر في السياق، ولم يرد عنهم سؤال من أحد حُسن أن يؤخروا في الذكر عن اليهود والنصارى. وبذلك تكون الآية جاءت في نظمها على غاية الحكمة في مراعاة حسن الترتيب.

معنى قوله «مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا...»:

بعد أن عرفنا معاني الطوائف الأربع «الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى والصابئين» والتي اشتملت عليها آية البقرة، وآية المائدة، وآية الحج، نرى كلاً من آيتي البقرة والمائدة تُتْبِعُ الطوائف الأربع بقوله تعالى: من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً...» فكيف يصح قوله تعالى في أول آية البقرة: «إن الذين آمنوا...» مع قوله بعد ذلك: «من آمن بالله واليوم الآخر..» وقد قدمنا فيما سبق شيئاً مما يتصل بذلك أثناء كلامنا عن المراد بـ «الذين آمنوا» وأن مثل هذا الإشكال دفع بعض المفسرين إلى تفسير «الذين آمنوا» بغير المتعارف هروباً من المشكلة، وتوقياً من مواجهتها. وقد أكثر المفسرون من الأقوال في محاولتهم تفسير هذه الآية، وذهبوا في ذلك مذاهب متعددة، وفي أكثرها تكلف واضح. ولعلّ خير هذه الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني في تفسيره المخطوط[1] حيث قال في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾:

«إن الإيمان يستعمل على وجهين:
أحدهما: الإقرار بالشهادتين الذي يُؤْمِن نفسَ صاحب الإيمان ومالَه عن الإباحة إلا بحق، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام.
والثاني: تحرِّي اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه.

فقوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾: عنى به: المتدين بدين محمد. وقوله: ﴿من آمن بالله...﴾: عنى به المتحري للاعتقاد اليقيني، فهو غير الأول. ولما كانت متناهية الأديان هذه الأربع من الله تعالى كان كل من تعاطى من هذه الأديان ـ في وقت شرعه

(١) تفسير الراغب مخطوط تركية: ورقة: ١٠

قبل أن نسخ عنه ـ فتحرّى في ذلك الاعتقاد اليقيني، وأتبع اعتقاده بالأعمال الصالحة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويبين صحة ذلك ماروي أن سلمان الفارسي لما ذكر له خبر النبي ﷺ فقصده وآمن به ذكر حُسْنَ أحوال رهبان صحبهم، فقال النبي ـ عليه السلام ـ (**ماتوا وهم في النار**)[1] فأنزل الله هذه الآية، ثم قال عليه السلام: (**من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير، ومن سمع بي ولم يؤمن بي فقد هلك**).

ثم يقول الراغب: «وقول ابن عباس وسعيد: إن هذا منسوخ بقوله: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾ يعنون: أن هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام، وأن الله جعل لهم الأجر قبل وقت النبي ـ عليه السلام ـ فأما في وقته فالأديان كلها منسوخة بدينه».

ومما يلقي الضوء على المعنى الصحيح لهذه الآية ما ذهب إليه صاحب تفسير المنار عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول:

«أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً، فألزم الذلَّ باطنَهم وكسا بالمسكنة ظاهرَهم، وبوّأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه، فذلك الله الذي يقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ . . .﴾

ثم يقول: «فلو قرَّ الخطاب عندها، ولم يتْلُها من رحمته مابعدها لحَقَّ على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس، وأن لا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس، بل كان ذلك القنوط لازماً لكل عاص، قابضاً على نفس كل معتد، لا فرق بين اليهود وغيرهم، فإن سبب مانزل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ماشرع الله لهم، وسنن الله في خلقه لا تتغير، وأحكامه فيهم لا تتبدل، لهذا جاء قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .﴾ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة، وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمناً لجميع من تمسَّك بهدي نبي سابق وانتسب إلى شريعة سماوية ماضية، ليدل على أن الجزاء السابق ـ وإن حكي على أنه من خطأ

---

(١) بينا فيما سبق من قول ابن تيمية أن هذا الجزء من الحديث لا يصح، لأن الرسول لم يكن يخبر بما لا علم عنده.

اليهود خاصة ـ لم يصبهم إلا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة، وهي الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرماته...».

ثم يقول: فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت، فهو على حد قوله تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً**﴾ فظهر بذلك أنه لا إشكال في حمل من آمن بالله واليوم الآخر الخ على قوله «إن الذين آمنوا» الخ ولا إشكال في عدم اشتراط الإيمان بالنبي ـ ﷺ ـ لأن الكلام في معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحي بخصوصها، الظانة أن فوزها في الآخرة كائن لا محالة، لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلاً، فالله يقول: إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية، وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس...»[1]

والذي يظهر لنا من كل ما سبق أن المؤمنين من هذه الأمة، ومن كان على دين اليهودية والنصرانية من السابقين للإسلام قبل أن يحرفوا ويغيروا، ومن كان على دين الصابئة الموحدين قبل أن يعرفوا الشرك والمذاهب الباطلة، فإن هؤلاء جميعاً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك إذا تحرَّوْا الاعتقاد اليقيني وأتبعوه بالأعمال الصالحة، لأن مجرد الانتساب إلى هذه الملل لا يعتبر كافياً ولا منجياً عند الله، إذا لم يحقق المنتسب إليها مقتضياتها في عالم الواقع، وذلك كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ... ﴾[2] كذلك لابد من ملاحظة أن الأجر عندالله والنجاة لأهل الملل الثلاثة إنما هو خاص بالسابقين لمجيء الإسلام، أما بعد مجيء الإسلام، فلا يقبل من أهل هذه الملل إلاّ الدخول فيه، لأنه يعتبر ناسخاً لما جاء قبله، وبخاصة أن الملل السابقة له دَخَلها التغيير والتحريف والتبديل.

(١) تفسير المنار: ١/٢٣٣ ـ ٢٣٦ باختصار.
(٢) النساء: ١٣٦.

حكمة ترتيب ذكر الفِرَق في آية المائدة:

عرفنا مما تقدم أن آية المائدة وآية البقرة ذكرتا الفِرَق الأربع، إلا أن آية المائدة قُدِّمَ فيها ذكر طائفة «الصابئين» على طائفة النصارى، وجاءت فيها كلمة «الصابئين» ـ بالرفع ـ «الصابئون» وذلك بخلاف ما جاء في سورة البقرة حيث قُدِّم فيها «النصارى» على «الصابئين» وجاءت كلمة «الصابئين» ـ بالنصب ـ متوافقة مع ما نُسِقت عليه.

وقد لفت هذا الاختلاف بين الآيتين أنظار العلماء قديماً، وتساءلوا عن وجه الحكمة في ذلك، كما أشار إلى ذلك الخطيب الإسكافي بقوله: «للسائل أن يسأل: هل في اختلاف هذه الآيات بتقديم الفِرَق وتأخيرها، ورفع «الصابئين» في آية ونصبها في أخرى غرض يقتضي ذلك؟ فالجواب أن يقال: إذا أورد الحكيم ـ تقدست أسماؤه ـ آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيّر فيها لفظة عما كانت عليه في الأولى، فلا بُدَّ من حكمة هناك تطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك بل جهلتم»[1].

وسنحاول فيما يلي استعراض آراء العلماء الذين عرضوا لبيان الحكمة من اختلاف الترتيب بين الآيتين، وحكمة اختلاف إعراب «الصابئين» كما سنناقش هذه الأقوال مبينين ما تنطوي عليه من قوة أو ضعف، ثم نبين وجهة نظرنا وما نرجحه في شأن هذه الآية.

ما يراه الخطيب الإسكافي: سبق أن عرفنا أن الخطيب الإسكافي يرى أن الترتيب في آية البقرة على حسب ترتيب تنزل الكتب، وأما في آية المائدة فإنه يرى أن الترتيب فيها على ترتيب الأزمنة لفظاً، وعلى حسب تنزل الكتب نية وحقيقة، وفي ذلك يقول:

«فترتيبهم في سورة المائدة، وتقديم الصابئين على النصارى، ورفعه هنا ونصبه هناك، ترتيب ثان، فالأول على ترتيب الكتب، والثاني على ترتيب الأزمنة لأن الصائبين وإن كانوا متأخرين على النصارى لأنهم لاكتاب لهم، فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام، فرفع الصابئون ونوى به التأخير عن مكانه، كأنه قال بعدما أتى بخبر إن الذين آمنوا والذين هادوا، من آمن

---

(١) درة التنزيل: ٢٠

بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون هذا حالهم أيضاً، وهذا مذهب سيبويه، لأنه لا يجوز عنده ولا عند البصريين وكثير من الكوفيين أن زيداً وعمرو قائمان، والفرّاء يجيز هذا على شريطة أن يكون الاسم الأول المنصوب بإنَّ لا إعراب فيه، نحو إنَّ هذا وزيد قائمان، وهذه من كبار المسائل ذوات الشعب، ويتعلق بالخلاف بين البصريين والكوفيين في أن لها عملين النصب والرفع على مذهب البصريين، وأن لها عملاً واحداً عند الكوفيين وهو النصب، إلا أن المذهب الصحيح ما ذهب إليه سيبويه. وهذه الآية تدلّ عليه لأنه قدّم فيها الصابئون، والنية بها التأخير على مذهب سيبويه، وإنما قدَّم في اللفظ وأخّر في النية، لأن التقدم الحقيقي التقدم بكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، فلذا فعل ذلك في الآية الأولى، وكان ههنا تقدم آخر بتقديم الزمان، ولما جاءت آية أخرى قدّم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل، ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه، كان ذلك دليلا على أن هذا الترتيب ترتيب بالأزمنة، وإن النية التأخير والترتيب بالكتب المنزلة»[1]

هذا ما ذكره الخطيب في حكمة ترتيب آية المائدة، وأنه ترتيب بالأزمنة لفظاً وترتيب بالكتب المنزلة نيةً وحقيقة، كما هو الترتيب في آية البقرة. على أن الذي يلفت النظر في ماذكره الخطيب من أن الترتيبين يؤولان إلى ترتيب واحد، لا تظهر له حكمة في اختلاف ترتيب الآيتين، وكان على الخطيب أن يبين لنا لماذا جاءت آية المائدة على الترتيب اللفظي المخالف لسورة البقرة إذا كانت توافقها نيةً وحقيقةً؟ غير أن ما سكت عنه الخطيب قد أوضحه غيره، فقد بين ابن الزملكاني الحكمة من هذا الترتيب بقوله:

«فإن قلت: فما فائدة هذا التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم؟ وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غيًّا، وما سُمُّوا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، أي خرجوا...»[2]

وبمثل هذا التعليل عَلَّلَ كثير من المفسرين والمعربين وجه الترتيب في آية المائدة، وذلك بناءً على إعراب «الصابئون» الذي ذهب إليه سيبويه، وإنها مقدمة من تأخير.

---

(١) درة التنزيل: ٢١ ـ ٢٢

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٢٣٢

وإذا كان هذا الذي ذكروه في تعليل ترتيب آية المائدة صحيحاً ومقبولاً، فإن السؤال الذي يطرح نفسه وينتظر إجابة هو: لماذا لم تأت آية البقرة على نفس ترتيب آية المائدة لتحقق ذلك المعنى؟ وما الحكمة من تأخير الصابئين في آية البقرة؟ هذا مالم نجد عنه إجابة عند أحد.

مايراه ابن الزبير الغرناطي:

وكما حاول الخطيب الإسكافي أن يجعل ترتيب ذكر الفرق في سورة المائدة يؤول في نهاية الأمر إلى نفس الترتيب الوارد في سورة البقرة، كذلك يحاول ابن الزبير الغرناطي أن يجعل الترتيب في سورة المائدة مؤكداً لما ذهب إليه من تعليل ترتيب ذكر الفرق في سورة البقرة، وفي ذلك يقول:

«ثم قدم ذكر الصابئين في سورة المائدة، وزيادة بيان للغرض المذكور في أنه لا ترتيب في الغاية الأخراوية إلا بنظر آخر لا بحسب الدنياوي والاشتراك فيما قبل الموافاة، بل المستجيب المؤمن من الكل مخلص، والمكذب متورط، ثم مراتب الجزاء بحسب الأعمال، فأوضح تقديم ذكر الصابين في سورة المائدة ماذكرناه، فإن قلت لم لم يقدم ذكرهم على الكل؟ قلت: لا وجه لهذا لمكانة المؤمنين وشرفهم، فإن قلت فهلا قدموا على يهود؟ قلت: قد كانت يهود أولى الناس بأن يكونوا في رعيل من المستجيبين، ومعهم جرى الكلام قبل هذا نعياً عليهم «وبياناً لمرتكباتهم، ولعظيم ماجرى على من لم يؤمن منهم، وترددت فيهم عدة آيات، وذلك مما يوجب تقديم ذكرهم على من عدا المؤمنين. فإن قلت: فالنصارى مثلهم؟ قلت: النصارى أقرب إلى الصابئين من حيث التثليث وسوء نظرهم في ذلك وتصورهم، ثم إنهم لم يجر لهم ذكر فيما تقدم هذه الآية، بخلاف يهود، فبان من هذه الجهة تقديم يهود عليهم، وإن كان يهود شر الطائفتين»[1]

ثم يحاول تأكيد المعنى مرة ثانية بتعليل مجيء «الصابئون» ـ مرفوعاً وفي ذلك يقول:

«إنه إنما ورد مرفوعاً تنبيهاً على الغرض المذكور، وتأكيداً للتسوية في الحكم، وإذا اتفقوا في الموافاة على الإيمان فنبه التقديم على هذا كما تقدم، وزاد القطع على الرفع تأكيداً، لأن قطع اللفظ عن الجريان على ما قبله محرك للفظ توجيهه، وهو عند

---

(١) ملاك التأويل: ١/ ٢٢٠

سيبويه ـ رحمه ـ الله مقدم من تأخير، وكأنه لما ذكر حكم المذكورين سواهم قيل والصابئون كذلك، أي لا فرق بين الكل في الحكم الأخراوي، وهو على هذا التقدير أوضح شيء فيما ذكر، وأما على طريقة الفراء ومن قال بقوله من حمله على الموضع ففيه التقديم، وأن التحريك القطعي في اللفظ وإن لم يكن مقطوعاً في المعنى لا يكون إلا لإحراز معنى، وليس إلا ما تقدم»[1]

وخلاصة ما يريد ابن الزبير أن يقوله: إن ترتيب ذكر الفرق في سورة البقرة كان بحسب حالهم الدنيوي، فقد جاء ذكر اليهود قبل النصارى لأنهم أسبق منهم، وجاء ذكر اليهود والنصارى قبل الصابئين لأنهم أهل كتاب، غير أن هذا الترتيب كان بمجرد الذكر، ولم يتأكد بحرف مرتب، لأن الواو لمطلق الجمع ولا تفيد الترتيب، وعدم تأكيد هذا الترتيب بالحرف المرتب إنما كان لحظاً لحالهم الأخروي حيث لاترتيب هناك، لأن المؤمنين من الجميع موافون في الجنة على مراتبهم، والكافرين من الجميع موافون في النار على مراتبهم. ومما يؤكد هذا المعنى تقديم الصابئين في سورة المائدة حيث يشير هذا التقديم إلى عدم اعتبار الترتيب لحظاً لحالهم الأخروي؛ ومما يؤكد ذلك أيضاً مجيء «الصابئون» ـ بالرفع ـ وأنها مقدمة من تأخير كما هو رأي سيبويه، أي: والصابئون كذلك، أي: لا فرق بين الكل في الحكم الأخراوي.

وقد سبق أن بينا رأينا فيما ذهب إليه ابن الزبير في تعليله لترتيب ذكر الفرق في سورة البقرة، وأنه فيه تكلف واضح، ويتأكد هذا التكلف بما ذكره ابن الزبير في تعليل ترتيب ذكر الفرق في سورة المائدة، وبخاصة حينما يحاول تعليل تقديم الصابئين على النصارى دون بقية الفرق من الذين آمنوا والذين هادوا مما يجعل ما انتهى إليه موضع نظر، ومما يؤكد ذلك أنه لا تظهر حكمة لاختلاف الترتيب بين آيتي البقرة والمائدة، كما لا تظهر حكمة مجيء «الصابئون» ـ بالرفع ـ في سورة المائدة دون سورة البقرة.

في إعراب «الصابئون»:

والحقيقة أن الكلام في ترتيب ذكر الفرق في آية المائدة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإعراب «الصابئون»، ومن ثم اعتبرها الخليل وسيبويه ونحاة البصرة مقدمة من تأخير، وكما رأينا ذلك فيما ذكرناه من حكمة الترتيب عند الخطيب الإسكافي، وعند

---

(١) ملاك التأويل: ١/٢٢١

ابن الزبير الغرناطي، وأنهما تابعا في ذلك رأي سيبويه. ولعلماء العربية في إعراب «الصابئون» أقوال أخر تدل على مدى اضطرابهم في إعراب هذه الكلمة، ومعظم هذه الأقوال يكتنفها الغموض، ويشيع فيها التكلف، وتشتم منها رائحة جور الصناعة الإعرابية على المعاني القرآنية، مما جعل النحويين يرد بعضهم قول بعض، وينكر كل منهم على صاحبه ما في قوله من ضعف، وما يلزم منه من إشكال، ولا بأس أن نَلُمَّ هنا ببعض هذه الأقوال:

ـ يرى الفراء أن «الصابئون»: عطف على «الذين» و«الذين» حرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه، فلما كان إعرابه واحداً وكان نصب «إنّ» نصباً ضعيفاً ـ وضعفُه أنه يقع على الاسم ولا يقع على خبره ـ جاز رفع «الصابئين»، ولا أستحب أن أقول: «إن عبدالله وزيد قائمان» لتبين الإعراب في «عبدالله». وقد كان الكسائي يجيزه لضعف «إنّ»...»[1]

وقد تصدَّى لرد هذا القول أبو إسحاق الزجاج بقوله:

«اختلف أهل العربية في تفسير رفع «الصابئين»:

فقال بعضهم: نصب «إنّ» ضعُف، فَنَسق بـ «الصابئون» على «الذين» لأن الأصل فيهم الرفع ـ وهو قول الكسائي ـ وقال الفراء مثل ذلك، إلا أنه ذكر أن هذا يجوز في النَّسَق على مثل «الذين» وعلى المضمر يجوز: «إني وزيد قائمان» وأنه لا يجيز: «إن زيداً وعمرو قائمان». ثم يقول أبو إسحاق: «وهذا التفسير إقدام عظيم على كتاب الله، وذلك أنهم زعموا أن نصب «إنّ» ضعيف لأنها إنما تغيّر الاسم ولا تغير الخبر. وهذا غلط، لأن «إنّ» عملت عملين: النصب والرفع، وليس في العربية ناصب ليس معه مرفوع، لأن كلّ منصوب مشبّه بالمفعول، والمفعول لا يكون بغير فاعل إلّا فيما لم يُسَمَّ فاعله. وكيف يكون نصب «إنّ» ضعيفاً وهي تتخطّى الظروف فتنصب ما بعدها نحو قوله: «إن فيها قوماً جبارين». ونصب «إن» من أقوى المنصوبات...»[2].

ـ الوجه الثاني: أن «الصابئون»: معطوف على الضمير المرفوع في «هادوا»، ونقل الفراء هذا عن الكسائي، وقال: «قال الكسائي: أرفع «الصابئون» على إتباعه الاسم الذي في «هادوا» ويقول الفراء: «ويجعله من قوله: «إنا هدنا إليك» لامن

(١) معاني القرآن ١٠/٣١٠ ـ ٣١١

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/٢١٢ ـ ٢١٤

اليهودية. وجاء التفسير بغير ذلك، لأنه وصف الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ثم ذكر اليهود والنصارى فقال: من آمن منهم فله كذا فجعلهم يهوداً ونصارى»[1]. وأكّد رد ذلك مكي بن أبي طالب بقوله: «وهو غلط لأنه يوجب أن يكون الصابئون والنصارى يهوداً. وأيضاً فإن العطف على المضمر المرفوع قبل أن يؤكد، أو يفصل بينهما بما يقوم مقام التأكيد قبيح عند بعض النحويين»[2].

ـ الوجه الثالث: ومن الوجوه التي ذكرها مكي أيضاً: أن «الصابئون»: مرفوع على العطف على موضع «إن» وماعملت فيه، وخبر «إن»: منوي قبل «الصابئين» فلذلك جاز العطف على الموضع، والخبر: هو: «من آمن» ينوى به التقديم، فحق «والصابئون والنصارى» أن يقعا بعد «يحزنون»، وإنما احتيج إلى هذا التقدير، لأن العطف في «إنّ» على الموضع لا يجوز إلا بعد تمام الكلام وانقضاء اسم «إن» وخبرها فيعطف على موضع الجملة»[3].

ـ الوجهان الرابع والخامس: وقد ذكرهما مكي أيضاً فقال: وقيل: إنما رفع لأنه جاء على لغة بلحارث الذين يقولون: رأيت الزيدان ـ بالألف ـ. وقيل: «إن» بمعنى «نعم»...»[4] وقد ردّ أبو حيان كونها بمعنى «نعم» قائلاً: وهذا ضعيف، لأن ثبوت «إن» بمعنى «نعم» فيه خلاف بين النحويين، وعلى تقدير ثبوت ذلك من لسان العرب فتحتاج إلى شيء يتقدمها تكون تصديقاً له، ولا تجيء ابتدائية أول الكلام من غير أن تكون جواباً لكلام سابق...»[5]

ـ الوجهان السادس والسابع:

وهما الوجهان الأخيران اللذان ذكرهما مكي في مشكلة، قال:

ـ وقيل: إن خبر «إنّ» محذوف مضمر دلّ عليه الثاني، فالعطف بـ«الصابئين» إنما أتى بعد تمام الكلام وانقضاء إسم «إن» وخبرها. وإليه ذهب الأخفش والمبرد.

ـ ومذهب سيبويه أن خبر الثاني هو المحذوف وخبر «إن» هو الذي في آخر الكلام يراد به التقديم قبل الصابئين، فيصير العطف على الموضع بعد خبر «إنّ» في المعنى»[6]

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/٣١٢

(٢) مشكل إعراب القرآن: ١/٢٣٣

(٣) و(٤) مشكل إعراب القرآن: ١/٢٣٣

(٥) البحر المحيط: ٣/٥٣١

(٦) مشكل الإعراب: ١/٢٣٢ ـ ٢٣٣

هذا مجمل للوجوه التي ذكرها النحويون في إعراب «الصابئون» وقد لاحظنا ما قيل فيها من تضعيف، وما تنطوي عليه من تكلف وتعسُّف، ولا شك أن كثيراً من النحويين ذهبوا إلى ترجيح رأي سيبويه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ولكن ما ذهب إليه سيبويه ـ على مافيه من القول بالتقديم والتأخير الذي يقطع نظم الكلام ـ لا يفسّر لنا الحكمة التي وراء ذلك، وما ذكروه من الحكمة ليس فيه مقنع، لأنه لو كان هو الوجه لجاءت به آيتا البقرة والحج، ويبقى مجيء آية المائدة برفع «الصابئون» دون آيتي البقرة والحج بحاجة إلى تعليل.

ما نرجحه في إعراب «الصابئون»:

ويبدو لنا بعد التأمل في الأقوال السابقة أن ماذهب إليه الأخفش والمبرد من أن خبر «إنّ» محذوف مضمر دلّ عليه الثاني وأن عطف «الصابئون» أتى بعد تمام الكلام وانقضاء اسم «إنّ» وخبرها، هو أبعد الأقوال المذكورة عن التكلف، وأقربها مراعاة للنظم، وأرجحها في المعنى، ولا يرد عليه ما أورد على غيره من إشكالات، ومن ثمّ فقد قال الراغب الأصفهاني في تفسيره: «إن قيل: ما وجه قوله: «والصابئون» وقد ذكر النحويون أن المعطوف على «إنّ» قبل الخبر لايصح فيه الرفع؟ قيل: إنّ ذلك لا يصح فيه الرفع على موضع «إنّ» والخبر عنهما خبر واحد، نحو أن يقول: «إنّ زيداً وعمرو منطلقان» فأما إذا جعل الثاني مرتفعاً بالابتداء، ويجعل خبر أحدهما مضمراً يصح، كقول الشاعر: «فإني وقياربها لغريب»[1] وتقدير الكلام: إن الذين آمنوا لاخوف عليهم؛ والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم؛ واستغنى بخبر أحدهما عن خبر الآخر. وعلى هذا قول الشاعر:

وإلاّ فاعلموا أنّا وأنتم بغاةٌ ما بقينا في شِقاق[2]

وهذا القول رجحه الجمل في حاشيته على الجلالين بقوله:

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: أي: إيمانا حقاً لا نفاقاً. وخبر «إنَّ» محذوف، تقديره: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ دلَّ عليه المذكور ـ.

---

(١) البيت لضابيء بن الحارث البرجمي وشطره الأول: فمن يكُ أمسى بالمدينة رحلُه . . . وهو في الخزانة: ٣٢٣/٤، والكتاب: ٨/١.

(٢) البيت لبشر بن خازم الأسدي. وهو في الخزانة: ٣١٥/٤، والكتاب: ٢٩٠/١ ـ وكلام الراغب من تفسيره المخطوط ـ نسخه تركية ـ ورقة: ٣٣١

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: مبتدأ. فالواو لعطف الجُمَل، أو للاستئناف.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: عطف على هذا المبتدأ.

وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . . الخ﴾: خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة.

وقوله: «﴿مَنْ ءَامَنَ . . . الخ﴾ بدل من كلٍ منها بدل بعض، فهو مخصص، فكأنه قال: الذين آمنوا من اليهود والنصارى ومن الصابئين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون. فالإخبار عن اليهود ومن بعدهم «بشرط الإيمان لامطلقاً» ثم يقول الجمل: هذا ما درج عليه الشارح في الإعراب. وفي المقام وجوه تسعة أخرى ذكرها السمين، ومامشى عليه الجلال أو ضح وأظهر من كل منها. . .»[1].

وعلى هذا يترجح ماقاله الراغب الأصفهاني في الآية: إن مِن قوله ﴿مَن آمن بالله. . .﴾ راجع إلى قوله: ﴿والذين هادوا والصابئون﴾ دون قوله: ﴿إن الذين آمنوا﴾[2].

وبناءً على ماتقدم يكون المراد بالآية: إن الذين آمنوا ـ وهم أمة محمد ﷺ ـ لاخوف عليهم ولا هم يحزنون؛ والذين آمنوا من اليهود والصابئين والنصارى، أي: دخلوا في الإسلام وعملوا بشرائعه، فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. ففي الآية إغراء «لأهل الطوائف الثلاث بالدخول في الإسلام والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ والعمل بشريعته، وإشعار لهم بأن ماهم عليه من دين وشريعة لم يعد مقبولاً بعد أن جاء الإسلام.

بين آيتي البقرة والمائدة:

ومما يؤكد ما انتهينا إليه في معنى آية المائدة أن آية البقرة جاءت تتحدث عن الفرق الثلاث التي كانت قبل بعثة النبي ـ ﷺ ـ فهي من باب الإخبار بما كان من شأن أهل الطوائف قبل الإسلام، كما بينا ذلك في أسباب نزول آية البقرة؛ وأما آية المائدة فإنها في أهل الطوائف الثلاث بعد مجيء الإسلام، وكما يلاحظ ذلك من سياق الكلام حيث قد جاء قبلها مباشرة:

---

(١) حاشية الجمل: ١/٥١١

(٢) تفسير الراغب: نسخة تركية: ورقة: ٣٣١ ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ [المائدة: ٦٨].

ثم يبين لهؤلاء المخاطبين من أهل الكتاب ما كان عليه سلفهم من تكذيب وانحراف وما آل إليه أمر دينهم من تغيير وتحريف وشرك، ويدعوهم إلى الانتهاء عن ذلك والتوبة إلى الله، فيقول بعد الآية التاسعة والستين مباشرة:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ . . . ﴾ [المائدة: ٧٠ ـ ٧٤].

والآيات واضحة كل الوضوح في أن أهل الكتاب بعد مجيء الإسلام لا يقبل ماهم عليه من دين، لأنهم كفروا بالتوحيد حينما آمنوا بالتثليث، وأشركوا بالله حينما اعتقدوا ألوهية المسيح، وبذلك حرمت عليهم الجنة ومأواهم النار. ومن ثم يدعوهم إلى التوبة والاستغفار، ولن يكون ذلك إلا بالرجوع إلى التوحيد الحق، والذي لم يعد موجوداً إلا في الإسلام الذي تنزل كتابه غضاً طرياً، وحفظه الله من أيدي العابثين والمشترين بآيات الله ثمناً قليلاً.

وعلى هذا يمكن أن نفهم قول ابن عباس وسعيد في آية البقرة، من أن ماجاء فيها إخباراً عن مصير الفرق الثلاثة في قوله: **﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾** منسوخ بقوله تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** حيث قال الراغب الأصفهاني عنهم: «يعنون أن هذه الأديان كلها منسوخة

بدين الإسلام، وأن الله ـ عز وجل ـ جعل لهم الأجر قبل وقت النبي ـ ﷺ ـ فأما في وقته فالأديان كلها منسوخة بدينه»[1]. وهذا الذي بينه الراغب من قول ابن عباس وسعيد هو ما جاءت تؤكده آية المائدة؛ ومما دلّ على هذا المعنى مجيء «الصابئون» ـ بالرفع ـ ولولا هذا الرفع لما اهتدينا إلى هذه الحكمة العظيمة التي تجعل آية المائدة لوقت بعثة النبي ﷺ وما بعدها، في حين كانت آية البقرة في فترة ما قبل البعثة بدلالة أسباب النزول.

مقارنة بين الآيات الثلاث:

ومن كل ماذكرناه يمكننا أن نستخلص مايلي:

ـ إن كل آية من الآيات الثلاث تختص بفترة زمنية معينة، فآية البقرة تتحدث عن الفرق الثلاث ومصيرها قبل بعثة النبي ﷺ ومجيء شريعته الخاتمة الناسخة، ومن ثمّ كان مصير أهل هذه الملل الثلاث كمصير المؤمنين بنبوة محمد ﷺ، لأن أهلها كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر عاملين بمقتضى شرائعهم المنزلة عليهم، ولم يحرفوا دينهم أو يغيروه، بل إنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وشريعته كما بشرت به كتبهم، وكما هو واضح من سبب نزول آية البقرة.

أما آية المائدة فإنها تخص فترة ما بعد الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ وإلى قيام الساعة، وهي تبين أن الطوائف الثلاث لم يعد مقبولاً منها بعد مجيء الإسلام إلا الدخول فيه والعمل بشريعته، لأنه ناسخ لكل ما سبقه، فالذين استجابوا منهم لذلك كان مصيرهم كمصير المؤمنين من أمة محمد ﷺ.

وأما آية الحج فإنها تختص بيوم القيامة، ومن ثمَّ ذُكِرَ فيها إلى جانب الطوائف الأربع طائفتان ليستا من ضمن الأديان والملل المنزلة من عند الله، وهما طائفة المجوس وطائفة الذين أشركوا، ولأن يوم القيامة يوم فصل بين الخلائق جميعاً، ومن ثم ذكر الملل الست التي ينطوي تحتها جميع الناس، ولم يذكر فيها ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يمكن أن يكون يوم القيامة، ولو حصل فإنه لا يقبل.

ـ جاءت الطوائف الثلاث في سورة البقرة معطوفة على ﴿الذين آمنوا﴾ ـ اسم إنَّ المنصوب ـ ومن ثمَّ جاء خبرها واحداً، وأنهم جميعاً لهم أجرهم عند ربهم ولا

---

(١) تفسير الراغب مخطوطة تركية ـ ورقة: ١٠

خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك تأكيداً بأن أهل كل ملة هم على حق في زمن ملتهم طالما أنهم ملتزمون بما جاءهم به نبيهم، وأن جميع الرسالات المنزلة من عند الله في ذلك سواء، ولهذا كان قوله: ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر**. . .﴾ يعود إلى الطوائف الأربع لأن المراد به تحري اليقين فيما يتعاطاه الإنسان من أمر دينه، وهذا مما تستوي فيه الملل الأربع. وانفردت آية البقرة بقوله: ﴿**فلهم أجرهم عند ربهم**﴾ لما جاء في سبب النزول عن سلمان رضي الله عنه من خبر عبادتهم وإيمانهم بالنبي ﷺ وبشارتهم بمجيئه.

أما آية المائدة فقد جاء الحديث فيها عن ﴿**الذين آمنوا**﴾ في جملة مستقلة حذف خبرها لدلالة المذكور عليه، إشعاراً بأنه بعد مجيء الإسلام لن يقبل غيره، وأن الأصل في النجاة يوم القيامة لمن آمن به فقط، ومن ثمَّ ذكر الملل الثلاث في جملة مستقلة معطوفة على الجملة الأولى، إشعاراً بأن مصير أصحاب هذه الملل متوقف على دخولهم في الإسلام، ولن يقبل منهم البقاء على ما كانوا عليه من مللهم، وعلى هذا يكون معنى ﴿**من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ من دخل في الإسلام واعتقد ماجاء في كتابه، وذلك لأن أهل هذه الملل خرجوا عن جادة التوحيد بما اخترعوا من التثليث، وبما حرفوا وبدّلوا من عقائدهم المنزلة، ولا يمكنهم الاهتداء إلى الدين الحق إلّا بالدخول في الإسلام، ومن أجل أن تكون الملل الثلاث في جملة مستقلة معطوفة على جملة ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ جاءت كلمة ﴿**الصابئون**﴾ **بالرفع وجعلت بين** ﴿**الذين هادوا**﴾ وبين ﴿**النصارى**﴾ لتبين أن ﴿**الصابئون**﴾ معطوفة على ﴿**الذين هادوا**﴾ وأن محل ﴿**الذين هادوا**﴾ الرفع باعتبارها مبتدأ، وأنها ليست معطوفة على ﴿**الذين آمنوا**﴾، وذلك لأن ﴿**الذين هادوا**﴾ تلزم حالة واحدة في الرفع والنصب، ومثلها ﴿**النصارى**﴾ ولهذا حسُن تقديم ﴿**الصابئون**﴾ وجعلت بين اليهود والنصارى لتحقق هذه الغاية التي تترتب عليها تلك الحكمة الكبرى. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.